إيمانويل كانت في ماهية الأحكام الجمالية وطبيعتها

د. افطيمة الهادي داعوب (*)
قسم الفلسفة –كلية الآداب
جامعة الزاوية

مقدمة:

أول ما يميز الحكم الجمالي (حكم الذوق) عند "كانط" هو أنه حكم يرجع إلى الذات، وإذا كانت كل أفكار العقل حتى المستمدة من الإحساس تشير إلى موضوعات خارجية، إلا أن الأفكار المستمدة من الشعور باللذة والألم ليست كذلك، لأننا في هذه الحالة لا نشير إلى موضوع خارجي، بل يكون لدينا شعور عن أنفسنا عندما نتأثر بهذا النوع من الأفكار.

ويرى كانط أن محاكمة الجمال ليست محاكمة حقيقية للقوق، لهذا يجب في الحقيقة أن نهتم بكيان الأشياء، وأن نكون بهذا الخصوص لا مبالين تماماً لكي نستطيع أن نضع حكاماً في

(*) Email: af.daoub@zu.edu.ly

ما يتعلق بالذوق، فالذوق هو ملكة شيء أو فكرة من حيث قبولها أو عدم قبولها بدون وجود أي غرض معين.

ويريد كانط أن يبني الحكم الذوقي على أساس أمتن، هو أساس عقلي ثابت، يتجاوز نطاق الاتفاق المشاهد بين الناس على أحكام معينة إزاء موضوعات جمالية خاصة، وينتقل من مجال الواقع إلى مجال الضرورة والوجوب.

ويتقدم كانط في تحليله خطوة أخرى إلى الأمام، وذلك بتطويره نظرية خاصة في مسألة تحديد الجميل وذلك بفرضه أربعة حدود على حُكم الذوق، هو يتناول الحكم الجمالي من وجهات أربع، الكيفية، الكمية، النسبة، والشكل. ويستدل على هذه الجهات الأربع كشروط لهذا الحكم، أما الدافع لذلك فهو –كما يبدو– محاولة إقامة تمييز واضح بين ما هو جميل من جهة وبين ما هو علمي أو أخلاقي أو عملي من جهة أخرى؛ مع التأكيد أن المتعة الناتجة من إدراكنا للجميل إنما تتأتي دون توسط التصورات أو الرغبات.

تحتل لحظات كانط الأربع هذه أهمية خاصة، وكيما ندرك بوضوح الأهمية التي تنطوي عليها تلك اللحظات، علينا أن نتذكر باستمرار الغاية الميثافيزيقية التي يسعى إليها كانط. وهكذا فإن ما يهمنا في هذا البحث هو أن نتفحص بدقة هذه اللحظات الأربع في حدودها ومضامينها. للإجابة عن السؤال التالي: "ماهي طبيعة الأحكام الجمالية؟"

– حدود أربعة للجميل:

يتكون "نقد ملكة الحكم" من مقدمة يبين كانط في ثمان نقاط منها كيف حاول التوفيق بين مؤلفيه الآخرين في النقد، أو بمعنى أصح أن يجمع قسمي الفلسفة في كل موحد، ومن هذين الجزأين المتفاوتين في الأهمية فإن أولهما وحده هو الذي يهمنا .

ويسمى هذا الجزء "نقد الحكم الجمالي" وهو بدوره ينقسم إلى جزأين هما تحليل الحكم الجمالي، وديالكتيك الحكم الجمالي. أما الجزء الثاني فلا يهمنا إذ يتعلق بنقد الحكم الغائي أو بحث الغائية الموضوعية في الطبيعة.

أما تحليل الحكم الجمالي فينقسم بدوره إلى جزأين، هما تحليل الجميل وتحليل الجليل، والجزء الأول ينقسم إلى أربعة اعتبارات:

1- الحكم الجمالي من حيث الكيف Quality:

الاعتبار الأول لحكم الذوق من وجهة نظر الكيف- بعد أن يأخذ كانط في التحليل الدقيق لشعور الإشباع المميِّز لحكم الذوق وهو شعور بريء عن أي هدف- يوازن كانط بين صور هذا الإشباع وهي: الإشباع الجمالي للذوق، واللذيذ، والخير، وبعد أن يقابل بين هذه الصور، يستدل منها على تعريف للجمال مستمد من الاعتبار الأول يتلخص في "أن الذوق هو ملكة الحكم بالرضاء أو عدم الرضاء على موضوع أو على أسلوب معين بشرط أن يكون هذا الحكم بريئاً عن الغرض، ويسمى موضوع هذا الإشباع بالجميل"[1]، وهو أنه حكم صادر عن الذوق، وأن الذوق يصدره عن رضا لا تدفع إليه منفعة، أي أن المتعة الفنية لا تهتم بحقيقة موضوعها، بخلاف اللذة الحسية التي تتطلب التملك، وبخلاف الرضا الخلقي الذي يتطلب تحقيق موضوعه. فالرسام يعجب بفاكهة أو بصورتها، ولكنه لا يشتهي أكلها أو بيعها بوصفه فناناً[2].

ويذهب كانط إلى أن الحكم الجمالي – من حيث الكيف- هو تأمل للتوافق بين المخيلة والذهن، يتولد عنه شعور بمنفعة أو بلذة لا ترتبط بأي غرض من منفعة أو مصلحة من أي نوع؛ فهو لذلك حكم منزه عن الغرض؛ وهو ما يجعل من الخبرة الجمالية خبرة خاصلة، تدرك الجميل وتستشعر اللذة المتولدة عنه بمعزل تام عن شبهات المنفعة أو المصلحة . ولكي يدعم كانط خاصية التنزيه عن الغرض في الحكم الجمالي راح يؤكد أن موضوعات الطبيعة لا تحرك فينا

الشعور باللذة الجمالية عن طريق مادتها الحسية، وإنما عن طريق ما تظهرنا عليه صورتها من توافق يقوم داخلنا بين ملكات عقلنا من مخيلة وذهن؛ وهو توافق موجود فينا على نحو أولي سابق على كل تجربة، تظهرنا عليه موضوعات الطبيعة بصورتها، لكنها لا توجد فينا؛ وهذا يعني أن الجمالي يتولد شعوراً في داخلنا على نحو أولي حين "تكتشف" الذات توافق قواها وملكاتها، فتعبر عن هذا التوافق واللذة المقارنة له في "حكم" تخلقه الذات بعد ذلك على الأشياء. فالجميل – في الأصل– هو ما نكتشفه فينا من توافق بين المخيلة والذهن؛ فما إن نكتشف "أولياً" هذا التوافق في داخلنا، حتى يعمنا شعور بلذة أو متعة تقترن "فورياً ولحظياً" باكتشاف هذا التوافق وتأمله. إن هذه العملية تنطق بوجود "حدس" لهذا التوافق و"حدس" للذة المقترنة به. غير أن إصرار كانط الصارم على استبعاد كل "مفهوم عقلي" من الحكم الجمالي حق لا يتحول إلى "معرفة" هو الذي جعله لا يسمي العملية الإدراكية في الحكم الجمالي باسمها الصحيح... الحدس[3].

ويرسم كانط خطّاً حاداً فاصلاً بين الإحساس كانطباع موضوعي في الحس، أما الشعور فهو الشيء الذاتي الذي يبقى في الداخل ولا يمثل أي موضوع حسي. يقول كانط: "إن اللون الأخضر للعشب ينتمي إلى الإحساسات الموضوعية كإدراك حسي للموضوع، أما سرورنا بذلك اللون فإنه ينتمي إلى إحساس ذاتي لا يقابله موضوع حسي، هو ينتمي للشعور" والاهتمام بالتالي هو ا لمتعة الناتجة من فكرة وجود شيء ما، غير أن فيها ما هو أكثر من مجرد متعة، إنه شعور عارم بالرضى والارتياح:

الجميل هو غير الخير. فالخير، كموضوع للإرادة (ملكة الرغبة المحددة بالعقل) يفرض تصوراً مسبقاً لما يجب أن يكون عليه الشيء. فإن تريد الشيء وأن تهتم به هما في الحقيقة أمر واحد. أما الحكم على الأشياء بالجمال لا يقتضي تصوراً محدداً للجمال؛ فالإزهار وتشابك

الأغصان، مثلاً، أمر ممتع وجميل رغم أنه لا ينطوي على أي تصميم أو معنى ولا يستند إلى تصور محدد"[4].

حكم الذوق، باختصار، هو حكم نظري غير معني بمسألة وجود الشي، بل هو حكم على تأثيره فينا حسب مبدأ اللذة أو الألم. إن تأملية حكم الذوق هي مجرد إدراك نظري ولا تتضمن في مصدرها وغايتها، أي بعد فكري. هو ليس إذاً –عملية عقلية–، وليس شأنا منطقياً، بل هو أمر جمالي "تدرك بواسطته تماماً أن العامل المحدد للعملية هو عامل ذاتي" . ويختصر كانط اللحظة الأولى هذه بالقول: "الذوق هو ملكة الحُكم بالرض أو بعدم الرضى على شيء ما، أو على شكل تقديمه. والشيء ا لذي يرضي هو بالتالي الجميل"[5].

يحاول كانط أن يُبرهن على أن الحكم الجمالي بعيد عن أي غرض ويحتوي هذا التأكيد على عنصر عقلاني بمعنى أنه يميّز العلاقة التي يحدثها الجميل من الاهتمام الذي نثيره ما هو لطيف أو ما هو خير، ويقول هيغل مقيماً ما هو إيجابي في تحديد كانط للاعتبار الأول: "إن مصدر الحكم الجمالي هو الرضى الذي يشبعه الشيء باعتباره يستحق الإعجاب لذاته وهذا الرضى يسمح للشيء أن يمتلك غاية في ذاته"[6]، ولكن كانط لم يلحظ في تحليله إلى علاقة الحكم الجمالي بالمصالح الاجتماعية والاتجاهات الفكرية وهذا ما استغله أنصار نظرية الفن للفن في القرن التاسع عشر. نلاحظ بعد ذلك أن كانط قلّص مجال استخدام موضوعه في انعدام المنفعة في حكما الجمالي وأكثر من ذلك فقد ضيّق إلى أقصى الحدود مقولة الجميل (الجمال الخالص) في الفن، فقد كان ينسب الرسم وحده إلى ما هو جميل بينما ينسب الألوان إلى ما هو لطيف حسّياً كما أنه كان يربط باللطيف لا بالجميل عناصر مهمة في الفن كاللّون في فن الرسم والنغم في الموسيقى وكان يعتبر أن موضوعه هو لا غرضية الحكم الجمالي يمكن تطبيقها على هذه العناصر.

ويرى كانط أن الشعور بالرائع يجب أن يكون منزهاً عن الرغبات والمتطلبات أياً كانت، فالشعور الجمالي، شعور خالص يقود إلى تأمل الشيء تأملاً مجرداً، وموضوع التأمل هو ا لشكل، والرائع هو موضوع التأمل غير المصلحي. والذوق هو الملكة التي بها نتخذ رأياً في شيء أو نمط تمثيلي اعتماداً على الغبطة بطريقة خالية من الغرض، والجمال هو موضوع هذه الغبطة.

2- الحكم الجمالي من حيث الكم "Quantity"

الاعتبار الثاني لحكم الذوق من وجهة نظر الكم: وحين ينظر كانط إلى الذوق من وجهة نظر ا لمقولة الثانية متبعاً نفس التخطيط السابق يبين أن الجمال يتمثل "بغير تصور" كموضوع للإشباع الضروري، وأن الذوق يتضمن شعوراً باللذة وحكماً لا يبين أي الاثنين سابق على الآخر. والتعريف الثاني للجمال المستمد من الاعتبار الثاني هو أن : الجمال ما يجلب اللذة بوجه كلي وبغير تصور"[7]، وهذا الحكم الجمالي يتعلق به من حيث الكم والعموم، فالجميل هو الذي يروق كل الناس، دون حاجة إلى أفكار عامة مجردة . وذلك أنه لا سبيل لنا إلى معرفة شيء عام عالمي دون أفكار تجريدية عامة نستطيع بها تقويمه، إلا الجمال، فإننا نستطيع أن ندركه في حين هو حسي، ونقوّمه على هذه الحال تقويماً عاماً مشتركاً بين الناس، دون حاجة إلى أفكار مجردة . وهذا الحكم يفترض اشتراك ذوي الأذواق فيه وقد يشذ منهم من يخالف المجموع، ولكنه شذوذ يؤكد القاعدة[8]، وربط كانط ما بين تأكيداته بأن حكم الذوق هو حكم ذاتي وأنه بنفس الوقت ذو أهمية عامة، هذه القضية كانت مثار جدل من حيث اشترط كانط على حكم الذوق أن يكون الجميل موضوع رضا كلّي أو عام من اشتراك الجميع في الرضا عنه بوصفه جميلاً[9]. ونلاحظ أنه من الصعب اتفاق جميع الناس على الرضا بجمال شيء معيّن لأن إدراك الجمال كا قلنا يتوقف على عناصر ذاتية منها طبيعية تعود للشخص ومنها مكتسبة تعود للبيئة

والثقافة والتربية والواقع. أن إصرارا كانط على الكلية في أحكام الجمال إنما يعود لإرادته بإيجاد مبادئ قبلية للجمال وذلك لجعله علماً لأن العلم لا يكون إلا بما هو كليّ . وهنا نتناول هل يمكن قيام علم موضوعه الجمال؟

يرى كانط أن الرضا بالجميل لا ينبغي أن يكون متوقفاً على الذات أي شخصياً بمعنى أن الرضا ممكن وجوده في أي إنسان. ولهذا يمكن الاعتقاد بوجود رضا مشابه عند كل شخص، فإمكانية افتراض صدفة (أي شيء جمالي) بالنسبة للجميع يشبه هذا الحكم الجمالي وكأنه حكماً منطقياً، فهنا العمومية في أن يكون نتيجة تصّورات أي لا ننتقل من التصورات إلى الشعور بالألم أو اللذة ومن هنا فإن إدعاء عموم ذاتي يجب أن يربط بحكم الذوق ولذلك فإن الكلية التي لا تقوم على تصورات الموضوع ليست كلية منطقية بل جمالية أعني أنها لا تحتوي على أي قدر موضوعي من الحكم بل فقط على قدر ذاتي ولذلك يستحسن تسميتها ذات قيمة عامة إذ علاقتنا بالشعور باللذة أو الألم وليس بملكة المعرفة، وكل حكم موضوعي له قيمة كلية هو دائماً ذاتي بمعنى أنه حين تكون للحكم بالنسبة إلى كل ما هو مدرج تحت تصّور معيّن فإنه يملك أيضاً قيمة بالنسبة إلى كل أولئك الذين يتمثلون موضوعاً بواسطة هذا التصور[10].

إذا لا يمكن الاستدلال من الكيلة الذاتية على الكية المنطقية ولذلك فإن الكلية الجمالية يجب أن تكون من نوع خاص من حيث امتدادها إلى كل الذوات التي تحكم، أما من حيث الكم في الأحكام، فالأحكام الذوقية جميعها شخصية لأن الأساس إرجاعها إلى شعوري باللذة أو الألم وليس بواسطة تصّورات فهذه الأحكام لا يمكن أن يكون لها كم الأحكام الموضوعية ذات القيمة الكلية . إذا حوّل الامتثال الشخصي للشيء الخاص بحكم الذوق إلى تصّور وذلك بالمقارنة وفقاً للظروف التي تحدد هذا الحكم فإنه ينتج عن ذلك حكم منطقي كلي فمثلاً: هذه الوردة التي أراها أقرّر أنها جميلة بواسطة حكم ذوق إنما لو حكمي صادر على أساس المقارنة بين عدة ورود فإن

الحكم يمكن أن يعد حكماً منطقياً مؤسساً على حكم جمالي . أما الحكم التالي: الوردة ملائمة للشم حكم جمالي وشخصي من غير شلك لكنه ليس حكم ذوق إنه حكم متوقف على الحواس ذلك أن حكم ا لذوق يشمل كمية جمالية من الكلية أي من القيمة بالنسبة إلى كل أحد.

يرى كانط أن الحكم الجمالي "حكم كلي" غير أن الكلية هنا ليست كلية منطقية، وإنما هي "كلية ذاتية"، تتمثل في القول بأنه على الرغم من أن "الحكم الجمالي" يصدر عن فرد واحد؛ إلا أنه قابل للتوصيل إلى الآخرين، بحيث إن ما يروق فرداً واحداً يروق الجميع، ويستند كانط في هذا التعميم إلى "وحدة الذوات"، وكلية الشروط الذاتية، فيما أن كل ذات هي ككل ذات أخرى، تعمل بنفس الطريقة ومن خلال نفس الشروط ونفس الملكات، لذا كان ما تصل إليه ذات من حكم هو ما تصل إليه أية ذات أخرى، فحكم الواحد هو حكم الكافة، وفي ظل فكرة كانط عن وحدة الذوات التي تجعل من كل الذوات نسخاً متطابقة تعمل بنهج واحد وتنتج نتاجاً واحداً "أولياً" سابقاً على كل تجربة ينسد باب الاختلاف، فيصبح حكم الواحد حكماً للجميع.

ومن الواضح أن إغراق كانط في المثالية حجب عنه شهادة الواقع الواضح البسيط التي تشهد باختلاف الأذواق وتمايز الأحكام الجمالية بين الناس في الحكم على شيء الواحد، إلى حد الإقرار والقبول لهذا التبيان على ما هو عليه؛ فلا مشاحة في الأذواق، وهو تباين أقرته اللغة المتداولة حين أجازت صيغة الجمع لكلمة "ذوق" في كلمة "أذواق"[(11)].

ولقد ردّ كانط الذوات كلها إلى قالب واحد، وجعلها في عملها أشبه ما تكون بـ"حس مشترك" حتى يضمن إمكان تعميم الحكم الجمالي وضمان الكلية الذاتية له، التي تصدر عن ذات مفردة تعبر عن كل ذات أخرى. ومن الواضح أن كانط قد غالى في فرض "وحدةٌ الذوات" ليضمن تحقيق أمر كان مضموناً لديه من طريق أقرب سيتضح لنا جلياً عند الحديث عن الحكم الجمالي والجهة Modality

إن مسألة الرضى الكلي والعام يمثل دوراً حاسماً في مسألة صورة الشيء أو الموضوع بمعزل عن التصورات العلمية والأخلاقية في حكم ا لذوق لا يتألف القانون الكلي القبلي من مجرد ا للذة، وإنما في مالها من وضوح كلي ذاتي يتأتى من إدراك التلاؤم العضوي الطبيعي بين صورة الموضوع وملكاتنا الفكرية، أي في إدراك التلاؤم القصدي بين الموضوع والذات المتأملة. يقول كانط: "أن تدرك موضوعاً وتحكم عليه من خلال اللذة فهو حكم تجريبي، أما أن تقول إني أجده جميلاً فهو حكم قبْلي، بمعنى أني أنسب إلى الجميع ذلك الشعور بالرضى أو الارتياح (الذي بعث عندي حكم الجمال)"[12]. ونعود مرة أخرى إلى السرور والرضى الجمالي الذي يتميز من اللذة المجرّدة بطابعه الكلي. فالمتعة التي تقدمها اللذة متعة حسية ذاتية، وفردية بالتالي، ومن الواضح، كما يعتقد كانط، أن لا جدوى من إنكار حقيقة أن لكل أمرئ ذوقه (الحسي) الخاص. وبهذا المعنى يبدو محقاً إذاً القول أن مع كانط: "... اللون البنفسجي لواحد من الناس هو لون ناعم محبب، بينما هو لآخر ذابل ميت. كذلك يحب أحدهم آلات النفخ الموسيقية بينما يرغب آخر في الآلات الوترية..." وكانط لا ينفي أ، هناك قواعد تحكم مسألة المتعة، إلا أنها قواعد تجريبية ونسبية وليست قبْلية ولا كلية. أما أساس القواعد التي توجَّه حكم الذوق (الحسي) فهو يكمن في طابعها الاجتماعي، تماماً كالقول أن رجلاً يعرّف كيف يسلّي ضيوفه بطريقة ممتعة. أما كلية الحكم الجمالي فتقوم في أن الحكم على الموضوع سابق للتمتع به، وإلا كانت متعة الحكم الجمالي إذ ذاك هي نفسها متعة الحواس، ولن يكون لها بالتالي إلا أثراً محدوداً خاصاً، أي أنها ستكون معتمدة على مجرد تأثرنا بما بلغنا من الموضوع (وهو بالطبع قاصر، جزئي، وغير كافٍ). هوذا، في رأي كانط، المدخل إلى نقد الحكم الجمالي. هو يؤكد أن الحكم على الموضوع هو أساس المتعة تتأتى من انسجام القوى المدركة وتناغمها، هي

تلي، إذاً، فعل الحكم. إن كلية الرضى إنما تستند إلى كلية الشروط الذاتية في الحكم على الموضوعات .

ورغم أن الجميل هو أقرب إلى مفهوم الخير منه إلى مفهوم المتعة، لاشتراكه مع مفهوم الخير في كلية الرضى الناتج عنهما، إلا أن فارقاً هاماً يبقى قائماً بين الاثنين. فبينما يتجسّد الخير، حسب كانط، موضوعاً لرضى كلي من خلال تمثّله لفكرة ما، فإن حكم الذوق إنما يأخذ مجراه ودونما عودة أو استناد إلى أي تصور أخلاقي ودونما أي تدخل منه[13].

وهكذا فاللحظة الثانية عند كانط، هي، باختصار: "الجميل هو ذلك الذي يسر أو يرضي بشكل كلي ودونما أي تصور عقلي". وأن الرائع في كونه لا يعتمد على الفهم، أي دون الاعتماد على مفهوم التفكير، فيبدو لنا كموضوع للتأمل الشامل. فالمتعة من الرائع هي ذات صفة عامة رغم أنها لا تقوم على أي مفهوم أو تحليل منطقي. ولا يمكن للحكم الأستطيقي أن يفسر منطقياً : الجمال يتمثل بدون توهم" كموضوع غبطة واجبة الوجود: وأن الذوق يملك إحساساً بالتنعم، وحكماً. وتحديد الجمال في هذه اللحظة هو الجميل وهو ما يسرنا بصورة شاملة وبدون وهم.

3- الحكم الجمالي والإضافة Relation:

الاعتبار الثالث لأحكام الذوق من وجهة نظر العلاقة : ويبين كانط هنا كيف يعتمد حكم الذوق على مبادئ أولية، وأنه مستقل عن "الجاذبية" و"الانفعال" كما هو مستقل عن تصور "الكمال" ويقدم نموذج الجمال معرّفاً إياه بأنه "أكمل ما يمكن من اتفاق في جميع الأزمان وعند جميع الناس" وذلك في الآثار النموذجية. غير أنه يعود فيعين أن الحكم بواسطة مثال للجمال لا يمكن أن يكون مجرد حكم للذوق، "فالوجه المستوي تماماً يكون عادة بغير تعبير" وأن مثل هذا الحكم الجاف والعقلي الخالص، لا يسمح بوجود أي جاذبية حسية، ومن هنا يمكن أن نستدل على تعريف الاعتبار الثالث للجمال: "بأنه صورة الغائية لموضوع من حيث تدرك فيه الغائية

بغير تمثل للغاية"[14]. فالجمال هو الصورة الغائية لموضوعه، من حيث أنه مدرك في ذلك الموضوع، دون تصور لغاية أخرى من الغايات . فكل شيء له غاية تدرك أو يظن وجودها، ولكن الجمال نحس بمتعة تكفينا السؤال عن الغاية، بحيث لو وجد عالم ليس فيه سوى الجمال، كان غاية في ذاته. وقد نظن أن هناك غاية من الغايات الجمال في الطبيعة، ولكن لا نستطيع تحديدها، فمثلاً إذا فكر عالم النبات أو التاجر أو زارع في وظيفة فاكهة في إنتاجها النوعي أو – في قيمتها التجارية– فإنه حينئذٍ لا يفكر في قيمتها الجمالية. وعلى الفنان –لكي يتوافر له الذوق الجمالي– أن يعجب بالشيء الجميل، دون أن يلقي بالاً لمثل هذه الغايات، فلا يحتفظ إلا بالشعور غير المحدد بأن هناك غاية للجمال في الطبيعة دون مضمون محسوس لتلك الغاية. وهذا ما يدعوه كانط: "الغائية بدون غاية" في الشيء الجميل[15]. فلو تساؤلنا ما هي هذه ا لغاية لقلنا أن هناك موضوع هو التصور وأيضاً غاية وسبب موضوع التصور هو الغائية فنحن نتصور الغاية حين نفكر في معرفة الموضوع نفسه من حيث شكله، من حيث إمكانية وجوده بواسطة تصور المعلول نفسه وعند ذلك يكون المعلول هو علته. وأساس حكم ا لذوق هو شكل غائية الموضوع أو كيفية امتثاله ذلك أن كل غاية تنطوي على مصلحة بوصفها مبدأً محدداً للحكم على موضوع اللذة ولهذا لا يمكن أية غاية ذاتية أن تكون الأساس في حكم الذوق.

وإذاً كانط يفكر على الشكل التالي: "بما أنه يحكم على الجميل دون أي غرض فلا يمكن أن يكون في مثل هذا الحكم أي غائية ذاتية" وبما أن الحكم الجمالي ليس حكماً معرفياً ولا يتعلق بمفهوم الموضوع فإنه لا يمكن أن يكون في هذا الحكم إذاً أي غاية موضوعية، وتبقى عندئذ الغائية الشكلية الذاتية وحدها، أي يوفر لنا الموضوع اللذة دون أي صلة بالغاية موضوعية كانط (في الموضوع ذاته)أو ذاتيته (بالنسبة لنا) . وهنا يكون الموضوع غائياً حين يوفر اللذة أي حين

يقود ملكات المعرفة إلى حالة التصور ذاته وإلى إشغال قوى المعرفة دون أي غاية أي الغاية الشكلية[16] .

غائية الموضوع (أو على طريقة انطباعه) ،في الحكم المنطقي العلمي تجري معرفة الموضوع من خلال مقولات الفهم القبلية . أما في الحكم الجمالي فإن الشيء الجميل إنما يُدرك كتعبير عن قصدية لا قصد فيها، أي قصدية دونما قصد ظاهر فيها، أو موضح لطبيعتها، ما يعنيه كانط بهذا المصطلح، قصدية لا قصد فيها، هو أنه صورة قصدية الموضوع التي تمنح السرور أو الرضا الناتج من الطابع الكلي دون تدخل أية فكرة تصورية، وتسمح بقيام توحّد في الحكم الذوقي بين المخيلة والفهم، توحد غير تصوري[17] في الحكم الذوقي هذا هناك تصور، إلا أنه تصور عام للاتفاق الحاصل بين صورة الموضوع والملكات العقلية –هو تعقل يحضر فيه الفهم ولكن دون أن يكون محكوماً بتصورات محددة. فملاءمة الموضوع للذات المتأملة وحدها (الذات التي تتأمل الموضوع)، تشير من وجهة عامة إلى سببية داخلية في الذات غير محكمة بشروط معينة. يقول كانط: "هذه المتعة ليست شأناً عملياً، أو أمراً تابعاً للتركيب الباثولوجي، في الشيء، وليست كذلك نتاج فكرة الخير. إلا أنها تحتفظ بسببية خاصة تسهم في جلاء حدود الانطباع القادم من الموضوع وفي صقل قدرات الذهن دونما أي تصور أو تصميم خارجي".

وإذا كانت العلاقة بين الموضوع الجمالي فالذات المتأملة تستند إلى قصدية لا قصد فيها"، فإن ما يلزم من ذلك هو أن المتعة هي بالتالي متعة خالصة مجردة ولا علاقة لها بالحس والمشاعر. يميز كانط باستمرار بين الأحكام الخالصة والأحكام ا لتجريبية، فيقول: "تنقسم الأحكام الجمالية، كما أحكام المنطق، إلى أحكام تجريبية وأحكام خالصة. تؤكد الأولى وجود المتعة أو عدمها، بينما تقدم الثانية جمالية الموضوع أو شكل عرضه. الأحكام الأولى هي أحكام الحسّ (أحكام جمالية مادية) بينما الأحكام الثانية وحدها هي الأحكام الذوقية الصحيحة" إن

اخضرار ضمة عشب، أو رائحة زهرة، أو نغمة لحن موسيقى هي جميعاً ظواهر غير خالصة، ظواهر يخالطها في أساسها كثير من الحس (لأنها خليط من المتعة والمنفعة).

والمتعة الخالصة في الجميل، نقول ثانية، هي غير المتعة التي تجدها في الخير والتي "تفترض مسبقاً وجود قصدية موضوعية، أي اعتبار الموضوع حسب غاية محددة".

ويختصر كانط اللحظة الثالثة كما يلي: "الجمال هو صورة قصدية الموضوع، بمقدار ما يمكن تصورها دون أي قصد فيها"[18].

ويقود هذا التشديد المستمر من قبل كانط على نقاء المتعة القْبلية في الجمال إلى تأسيس تمييزه الشهير بين الجمال الحر والجمال اللاحق.

ونستطيع أن نكشف عن المعنى الحقيقي لأفكار كانط فيما يخص اللحظة الثالثة، أي فقط حين نعالجها تاريخياً. فقد وقف كانط ضد إخضاع الفن لمصالح السياسة والأخلاق الاقطاعية أو البرجوازية، لقد كان يقوم بعمل تقدمي إذ كشف الضعف في النظريات الجمالية آنذاك وحاول أن يتجاوزها . فلقد انتشرت في القرن الثامن عشر النظرية العقلانية في الفن لدى بعض المتنورين ولدى كثير من أعدائهم الرجعيين وخصوصاً الجناح المحافظ من المتنورين الألمان . وتهدف هذه النظرية إلى تقييم المؤلف الأدبي استناداً إلى غائيتها الخارجية دون أن تأخذ في حسابها ماهية الفن وقوانينه الخاصة. ومطلب هذه النظرية أنه على الفنان عندما ينفذ عمله أن لا يهتم إلا بغاية محددة وآلا يقيم المؤلف الفني كمؤلف فني أي بمقدار فنيته بل بمقدار ما ينجح في بلوغ الغاية الموضوعية له[19]. واعتبر كانط أنه على الرغم من أن الغائية مفترضة سلفاً في الفنون الجميلة فإنه يجب ألا تظهر هذه الغائية وكأنها مقصودة أي أن ننظر إلى الفنون الجميلة نظرتنا إلى الطبيعة ولكن أن نعرف أن أمامنا فناً على الرغم من أن كانط يسمى الغائية

في الفن غائية شكلية إلا أنه يعتبر إذا ما استخدمنا لغتنا المعاصرة للتعبير أن الضروري بالنسبة للعمل الفني هو على وجه التحديد الغائية الداخلية (أي الحرية).

وهنا نخلص إلى أن الجميل بحسب كانط وكما فهمه هيغل: هو أن الجميل لا يحمل الغائية في ذاتيه كشكل ما خارجي عنه وإنما يكون التناسب الغائي بين ما هو داخلي وما هو خارجي. وقد شوهت نظرة كانط عن الغائية دون غاية وفهمت على أنها نظرية الفن للفن وهذه العبارة غير موجودة عنده، وقد ألصق البرجوازيون في القرن التاسع عشر بكانط نظرية تفصل الفن عن الواقع خلافاً لرزج علم الجمال الكانطي بمجموعه[20].

وعلى الرغم من نفي كانط للغائية عن الحكم الجمالي إلا أنه يعود فيقرر أن للحكم الجمالي "صورة الغائية" ولكن بغير غاية محددة، بعبارة أخرى تقول: إن كانط قد جعل للحكم الجمالي "صورة الغاية" –أي الإطار الصوري للغائية– دون أن يقيده بغاية محددة. وكان هدف كانط من ذلك هو تنشيط المخيلة بمطلق الغاية، ونفي المحتوى المعرفي عن الحكم الجمالي[21].

4- الحكم الجمالي من حيث الجهة Modality:

الاعتبار الرابع لحكم الذوق تبعاً للجهة: (تبعاً للإشباع الصادر عن موضوع ما) "إن ضرورة الرضاء العام متصوراً في حكم ا لذوق هي ضرورة ذاتية، غير أنها تتمثل في شكل موضوعي في حين يفترضها الحس المشترك" والتعريف الأخير هو على النحو الآتي: "الجميل ما يعترف به موضوعاً لإشباع ضروري بغير تصور"[22]، وهذا الاعتبار، يتعلق بالحكم من حيث الذاتية والموضوعية، ذلك أن الحكم، بعامة، له ثلاث حالات : إما أن يكون تقريراً لحقيقة عن طريق التجربة، أو برهنة نظرية على قضية علمية يسلم بها ضرورة، أو مجرد احتمال منطقي، إلا الجمال فإن خاصته تقرير ما يدرك –ضرورة– إدراكاً ذاتياً ابتداء ولكنه موضوعي من ناحية التصور: بافتراض عموم الشعور به لدى ذوي الأذواق، فالجميل هو ما يعترف له بهذه الصفة،

لأنه مصدر شعور ذاتي بالرضا به، دون حاجة إ لى أفكار وأقيسة يتطلبها الحكم الموضوعي، فإذا حكمت بأن هذه الوردة جميلة، فليس ذلك نتيجة قياس حتمي منطقي، أو نتيجة تجربة، كما هي الحال في الطبيعة أو الرياضة مثلاً . وإنما ذلك نتيجة لحكم ذاتي فردي، وكأنه أمر صادر عن وعينا الجمالي. فإذا حكمنا بما يخالفه كان في ذلك معصية للضمير الجمالي، يشبه معصيتنا لضميرنا الخلقي فيما لو خالفنا واجبنا خلقياً[23].

ويحمل الحكم الجمالي –من حيث الجهة– على جهة الضرورة، وهي عند كانط ليست ضرورة منطقية، وإنما هي ضرورة وجدانية ذاتية. ويكون الحكم "ضرورياً" عندما يستحيل تصوره على غير ما هو عليه دون الوقوع في تناقض، فأنا حين أصل إلى حكم يقول "هذه الوردة جميلة"، فإن العلاقة بين "الموضوع" (الوردة) و "المحمول" (الحكم بأنها جميلة) علاقة "ضرورية" ؛ إذ من المحال على الوجدان الذي صاغ هذا الحكم أن يرى علاقة الموضوع بالمحمول فيه على غير ما هي عليه ويسلم من التناقض. وقد جعل كانط من هذه الضرورة الوجدانية الذاتية ضامناً آخر لتعميم الحكم الجمالي، إذ أنه لما كان الحكم الجمالي "ضرورياً"، يعني استحالة تصوره على غير ما هو عليه، كان كذلك حكماً عاماً واحداً لدى كل الذوات.

وقد عدّ كان "الضرورة الذاتية الوجدانية" ضامنة لتعميم الحكم الجمالي ووحدته لدى الذات كافة، بما هي كذلك ؛ وكان تحول الضرورة الوجدانية "الذاتية" إلى سند في تعميم الحكم الجمالي هو أمر لازم جازم من قبيل البديهيات[24].

وقد يقول قائل: إن كانط قد أسس هذه الضرورة الوجدانية الذاتية على خلفية "وحدة الذوات" غير أن فرض "وحدة الذوات" لا يعدو أن يكون مجرد فرض ميتافيزيقي تعسفه كانط اعتسافاً ليتجنب به القول بـ "حدس" – هو مفهوم عقلي– كان من شأنه أن يحقق له صفتي "الضرورة" و "التعميم" على نحو أكثر تسويغاً واتساقاً، فالحدس يدرك موضوعه إدراكاً "ضرورياً"

يستحيل معه تصوره على غير ما هو عليه، فتكون هذه الضرورة الحدسية عندئذٍ خير ضامن للتعميم والكلية[25].

بالنسبة لحكم الذوق تبعاً للجهة "الجميل هو الذي يجري التقاطه موضوعاً للسرور أو الارتياح ضرورة وبدون أي تصور" هذه الضرورة التي ترافق الارتياح ليست ضرورة موضوعية نظرية، لأنها سوف تكون إدراكاً قبلياً بمعنى أن الكل يجب أن يمتلكوا نفس الشعور تجاه الشيء الجميل؛ وهي ليست ضرورة عملية، أيضاً لأن المتعة ستكون إذ ذاك النتيجة الضرورية لقانون موضوعي بمعنى إلزام بالتصرف حسب طريقة معينة دون سواها. الارتياح الجمالي هو مثال، هو "حتمية تتبع من اتفاق الكل على حكم اعتبر مثلاً لقانون كلي ليس من صنعنا نحن"[26].

يفترض كانط، مسبقاً وجود نوع من الحس المشترك الذي يجعل الاشتراك بالجمال أمراً ممكناً فالناس جميعاً تشترك في هذا الحس المشترك "ولا تعني به حساً خارجياً غريباً عنا، وإنما هو الأثر الذي يتركه اللعب الحرّ لقوانا الفكرية". هو يختلف جوهرياً من الفهم الذي يبني المعرفة ويربطها بواسطة التصورات لا المشاعر. هو معطى مثالي يسمح بتشكيل قاعدة تحكم كل الأحكام التي تتفق معه وكذلك السرور أو الارتياح الناتج عنه. يقول كانط: "في مفهوم الاشتراك الحسي Senus Communis نحن نُدخل الفكرة تلك أي ملكة الحكم التي تدخل في اعتبارها وبشكل قبلي شكل التأثير (الارتياح) لدى الجميع، كأنما هو قياس لحكمها على مقياس عقل الإنسانية الجماعي، ونتخلص بالتالي من الأوهام الناتجة عن الظروف الشخصية التي قد تتسرب بسهولة إلى أحكامنا. لكن ذلك إنما يجري بمقارنة حكمنا بأحكام الآخرين المحتملة، لا بأحكامهم العقلية، وجعل أنفسنا في محل أي واحد من هؤلاء، وذلك بتجديد حكمنا من التحديدات والعيوب التي قد تعرض له. وهذا لا يتأتي إلا بالتخلي، قدر الإمكان، عن مادة التأثير القادم إلينا، أي الإحساس، وللأخذ فقط بالخصائص الصورية القائمة في ذلك الانطباع السيء"[27].

مبدأ الاشتراك الحسي مبدأ هام، مثله مثل مفهوم الحيادية الجمالية، وهو يقدم ارتياحاً "نموذجياً" ويجلب الانسجام إلى حقل الحكم الجمالي.

نخلص من كل ذلك أن حكم الذوق ليس حكماً معرفياً يفترض له بوجه عام خاصية بالذهن، وهو يهدف إلى قيمة كلية تتعلق بحكم شخصي، وهذه الكلية التي سعى إليها حكم الذوق لا يمكن أن تقوم على أساس اتفاق أداء الآخرين بل على استقلال الذات وهي تحكم باللذة أو الألم وإن كان هذا الحكم لا يقوم على تصورات فهو حكم جمالي. فحكم الذوق يصاغ دائماً على شكل حكم مفرد بمناسبة موضوع ما، والذهن قادر أن يصوغ حكماً عاماً بمقارنته مع أشياء أخرى من حيث الإرضاء، لذلك لا يمكن أن يكون للذوق مبدأ موضوعي أي تندرج تحت شروطه تصور الموضوع ثم بعد إقامة البرهان نحكم بأنه جميل لأن بحكمي على الشيء بأنه جميل يتم مباشرة لدى مشاهدته دون مساعدة براهين، ولكن على الرغم من ذلك فإن حكم الذوق يتشابه مع الحكم المنطقي من حيث ادعائه الكلية والضرورة وهذا لا يتم بحسب تصورات الموضوع وإنما لاعتبارات ذاتية خالصة، ويقول كانط إن مما ما نقرره قبلياً عن موضوع في حكم الذوق إنما هو كلية اللذة المرتبطة بمشاهدة الشيء الجميل والاستقلال في رأينا، من هنا يقول كانط: إن الفن هو ما ينتج عن الحرية وهي تضع العقل أساساً لأفعالها لأن كل عمل فني إنما فكر صانعة في غاية من أجلها، والفن مهارة إنسانية تتميّز عن العلم وتتميز عن الصناعة، فالفن حرّ، والصناعة مأجورة وربما تتم بصورة قسرية لأن نتاجها يسعى للناحية المادية.

إذاً حكم الذوق كما قلنا يتعلق بموضوعات الحواس، لكن ليس من أجل تحديد تصورها بواسطة الذهن لهذا يكون محدوداً من حيث قيمته، وهو مع ذلك فإن فيه توسيعاً لامتثال لموضع، ومن هنا نفترض أن صدقه يمتد إلى أبعد من صاحبه، وإذا قلت أن حكم الذوق يقوم على تصور (وهو مبدأ عام للغائية الذاتية للطبيعة بالنسبة إلى ملكة الحكم) بواسطة لا يمكن مع ذلك معرفة

أو إثبات شيء يتعلق بالموضوع لأنه في ذاته غير قابل للتحديد وغير ملائم للمعرفة، ومع ذلك فإن هذا الحكم يتلقى بواسطته تصور القيمة هذا بالنسبة إلى الجميع (وهذا الحكم هو في كل واحد مفرد ويعجب العيان مباشرة) لأن المبدأ المحدد للحكم ربما يوجد في تصور ما يمكن أن يعدّ أساساً فوق محسوس اللإنسانية، من حيث كونها فكرة تقوم على أساس الطبيعة، وثم بوصفها مبدأ الغائية الذاتية للطبيعة بالنسبة لملكتنا في المعرفة إلى جانب كونها مبدأ لغايات الحرية واتفاق هذه الغايات مع الحرية في العالم الأخلاقي، فالجميل هو رمز الخير الأخلاقي وهو من هذه الناحية يرضي ويدّعي توافق الجميع وهنا تشعر الروح الإنسانية أنها ارتفعت وسمت فوق الشعور باللذة بواسطة الحس، ذلك أن هناك تشابه بين الجميل والخير الأخلاقي وإن كان يقوم هذا الأخير على التصور[28] .

فالجميل يشعرنا باللذة والغبطة في حال مشاهدتنا له ويجعلنا نغض الطرف عن كل منفعة فنحكم بحرية على جماله وهذه الحرية الذاتية تشكل منطلق كمي تعبر على أنها صادقة بالنسبة للجميع دون أن يمثل الجميل أنه قابل للمعرفة بواسطة تصور كلي، والإدراك العام تعود أن يراعي هذا التوافق بين الجميل والأخلاقي وكثيراً ما نسمي الأشياء الجميلة في الطبيعة أو في الفن بأسماء تبدو انطلاقتها من مبدأ الحكم الأخلاقي حيث تنطوي على ما يقابل إثارة النفس الإنسانية بالحكام الأخلاقية.

الخاتمة

يستخلص مما سبق ما يأتي:

1- يمكننا أن نوضح آراء كانط الجمالية فنقول : من ناحية الكيف الذوق خال من أي نفع خاص فليس هناك إرغام يدفعني إلى إصدار حكم معاكس على ما أشعر به أنه جميل... ومن ناحية الكم هو يرضي الجميع والكلية هنا ليست منطقية بل هي كلية وجدانية إذ أن الجميع يشتركون فيه لأنه ليست هناك مصلحة لقول حكم عكسي، وفي العمل الفني والرؤية الجمالية للطبيعة نتبين وجود تنظيم يستهدف غاية وعندما ندقق لمعرفة هذه الغاية لا نجد شيئاً فكأن هناك غائية حيث لاغائية حقيقية. هذا من ناحية الإضافة، ومن ناحية الجهة أي من حيث الضرورة أو الإمكان نجد أن الحكم الجالي هو آمر استطيقي يشبه الآمر الأخلاقي من حيث أنه أولى وضروري، وهكذا نخلص إلى أن الجمال متعة كلية خالية من كل مفهوم وهو غائية بدون غاية وهو ارتياح منزه عن كل عرض وهو ضرورة ذاتية.

2- وعلينا في كل هذا أن نلاحظ أن الحكم يعني ملكة التفكير في الجزئي باعتباره محتوياً في الكل وأنه يشكل حداً وسطاً بين الفهم والعقل وقد يلوح أنه يستند إلى مفهوم، فإذا دققنا لمعرفة حقيقة هذا المفهوم لم نجد شيئاً محدداً ولهذا مفهوم غير متعين Concept، إنه حكم وجداني، إن حكم التذوق ينطلق من الحالات الجزئية لنصل إلى القانون وهو لهذا حكم تأمل على عكس حكم التعيين الذي يطبق القانون على الحالة الجزئية.

3-وأخيراً، هذه الصورة البسيطة لحدود الحكم الجمالي كان الأساس النظري لمعتقدات جماعة من الرومنطقين المتأخرين في فرنسا والاتجاهات الغربية منها في ألمانيا وفي أوروبا وذلك في منتصف القرن التاسع عشر.

هوامش البحث:

(1) دنيس هويسمان: علم الجمال، ترجمة: أميرة حلمي مضر، المركز القومي للترجمة ، القاهرة (د.ت)، ص 37.

(2) محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، دار النهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت، ص 285.

(3) يقول مونيه Monet إن الحدس اكتشاف ، يحدث لنا جميعاً– كما حدث لي يوماً– عندما كنت أسير في حديقة فناء ورأيت الأشجار والأعشاب في ألوان متنوعة أحدثت في نوعاً من ا لمتعة والبهجة ، كأنها اكتشاف لشيء ما حقيقي في العالم أو عن العالم. وهو الاكتشاف لشيء جديد في العالم أو عن العالم هو شيء أولي وطبيعي. انظر:

Joyee Cazy: The gap between intuition and expression in m. cnhm; reading in philosophy of and aesthetes

(4) نوكسي: النظريات الجمالية، النظريات الجمالية ، ترجمة: محمد شفيق شيا، منشورات بحسون للثقافة، بيروت، لبنان، 1985، ص 46.

(5) نفس المرجع ، ص 47.

(6) الجمال في تفسيره الماركسي: بقلم عدد من الفلاسفة السوفييت، ترجمة: يوسف الحلاق، منشورات وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي، دمشق، 1468، ص16.

(7) دنيس هويسمان: علم الجمال ، مرجع سابق، ص 37.

(8) محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، ص 285.

(9) المرجع نفسه، ص286.

(10) غادة المقدم عدرة: فلسفة النظريات الجمالية، جودس برس، طرابلس، لبنان، 1996م، ص 83.

(11) وفاء إبراهيم: دراسات في الجمال والفن، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، 2000، ص 24.

(12) نوكس: النظريات الجمالية، مرجع سابق، ص 54-55.

(13) أ. توكس: النظريات الجمالية، مرجع سابق، ص 56.

(14) دنيس هو يسمان: علم الجمال، مرجع سابق، ص 38.

(15) محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، مرجع سابق، ص 285-286.

(16) غادة المقدم عدده: فلسفة النظريات الجمالية ، مرجع سابق، ص 84.

(17) لا حضور للتصورات المنطقية فيه ولا استخدام لها.

إ. نوكس: النظريات الجمالية، مرجع سابق، ص 58.

(18) المرجع السابق، ص 59.

(19) الجمال في تفسيره الماركسي، بقلم عدد من الفلاسفة السوفييت، ترجمة: يوسف الحلاق، منشورات وزار ةالثقافة والسياحة والإرشاد القومي، دمشق، 1968، ص 25.

(20) غادة المقدم عدده: فلسفة النظريات الجمالية، ص 85.

(21) وفاء إبراهيم : دراسات في الجمال والفن، م . س، ص 24.

(22) دنيس هويسمان: علم الجمال، مرجع سابق، ص 38.

(23) محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، ص 286.

(24) وفاء إبراهيم: دراسات في الجمال والفن، مرجع سابق، ص 25-26.

(25) لقد لاحظ نوكس عدم قدرة كانط على إدراك أن التجربة الجمالية في فهم شامل للخصائص الكيفية في الفن والطبيعة، وأن هذا الفهم الشامل للكل يتم في إطار من شعور أو عاطفة

ملائمة له، وأن ذلك الشعور أو تلك العاطفة تسري في كلية الخبرة الجمالية بوصفها موضوعاً ومتلقياً ومتأملاً.

Knox: Awstnetie Theog: es of Kant. Hegel,andsehapenhaueg.p32.

(26) نوكس: النظريات الجمالية، ص 65.

(27) نفس المرجع ، ص 66.

(28) غادة المقدم عدرة: فلسفة النظريات الجمالية، ص 86.